مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

ك . ك

ويا دهر لحاك الله ، ما هنأت فرحانك

« ابو العلاء »

مصرع عثمان (٢)

الاسباب التي أدت الى مصرعه

(١)

(ضعفه)

« ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه ، وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم علي »

« عثمان »

أجملنا في العدد السابق الاسباب التي ادت الى مصرعه ووعدنا بتفصيل أهمها في هذا العدد ، ونحن ننجز وعدنا الآن :

أول الاسباب التي انتهت بعثمان ـ رضي الله عنه ـ الى هذه الخاتمة المفجعة ضعفه الشديد ولين جانبه وشدة حيائه

فلقد كان ـ رضي الله عنه ـ ذكياً فطناً عارفاً باخلاق الناس ، ولكن الارادة

القوية والعزيمة الجريئة والبطش بالمذنبين ، واغفال الرحمة ونسيان كل اعتبار في سبيل تدعيم الأمن وتوطيد المملكة ، والمضي في انفاذ خطة جلية حازمة وتطبيق سياسة بعينها ، هذه هي الخلال التي تنقصه ، وهي وحدها الخلال الجديرة بكل حاكم يريد توطيد ملكه وتثبيت دعائمه

لم تغب عنه صفات عمر ومزاياه الباهرة ، ولا غفل عن تقليده في كثير من سياسته ، ولكن نقصه شخصية عمر القاهرة الجبارة التي تهابها الناس وتابي رغباتها وتنحني امامها خاضعة ، وتنفذ اشاراتها راضخة ، وتخشى ان تحيد عنها قيد انملة حتى لا تقع تحت طائلة عقابه ، او يصيبها قصاصه الذي لا ينجو منه مخطىء ، ولا يفلت منه مسيء

وما لنا نحاول وصف عثمان ، وقد رسم لنا علي ـ رضي الله عنه ـ صورة ناطقة لم تدع بعدها غاية لواصفيه :

« الناس ورائي وقد كلموني فيك ، ووالله ما أدري ما أقول لك ، وما اعرف شيئاً تجهله ، ولا ادلك على امر لا تعرفه

انك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ـ وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونلت صهره ، وما ابن قحافه (ابو بكر) بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك

الى ان يقول :

فالله الله في نفسك ، فانك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل ، وان الطريق لواضح بين »

فاذا اعتذر عثمان اليه بانه يقتفي أثر عمر ، أجابه علي اجابته الموفقة اذ يقول :

سأخبرك ان عمر بن الخطاب كان كل من ولي قائما يطأ على صماخه ، ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به اقصى الغاية ، وانت لا تفعل ، ضعفت ورققت على اقربائك »

فاذا ذكر له عثمان ان معاوية كان ممن ولاه عمر مدة خلافته كلها وانه يقتدي

كذلك بعمر في توليته ، ابان له علي الفرق بين العملين ، فقال :

« انشدك الله ! هل تعلم ان معاوية كان اخوف من عمر ، من (يرفأ) غلام عمر منه ؟ »

قال : نعم »

قال علي : (فان معاوية يقتطع الامور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس : (هذا أمر عثمان !) فيبلغك ولا تغير على معاوية !)

ولعل في هذه الجمل ابلغ شرح يلمس منه القاريء مواطن الضعف في عثمان رضي الله عنه ، التي أطمعت فيه سواه ، وادت الى استهانة الناس بأمره !

أمثلة من جرأة الناس عليه

ولقد وصل اجتراء الناس عليه الى أبعد الغايات

فهذا رجل يشتمه وهو يخطب الناس على عصا النبي في جمع حاشد ، ويصيح به:

(قم يا نعثل [1] فانزل عن هذا المنبر ! [2])

ثم يأخذ العصا فيكسرها على ركبته

* * *

وذلك [3] يمر به عثمان ، وهو جالس في ندي من قومه ، في فناء داره ، ومعه جامعة [4] ، فيسلم عثمان فيرد القوم ، فيقول ذلك الرجل :

---

(١) النعثل الشيخ الاحمق ، أو الذكر من الضباع ، وهذا لقب رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية ، وكان عثمان اذا نيل منه وعيب يشبه به لطول لحيته . (٢) كان اسم هذا الرجل « جهجاه الغفاري » وفي رواية أخرى انه صاح به :

يا عثمان ! الا إن هذه شارف (ناقة مسنة هرمة) قد جئنا بها ، عليها عباءة وجامعة (سلسلة) فانزل فلندرعك العباءة ولنطرحك في الجامعة ، ولنحملك على الشارف ، ثم نطرحك في جبل الدخان ! » (٣) هو « جبلة بن عمرو الساعدي » قالوا : وهو أول من اجترأ عليه (٤) سلسلة

(لم تردون على رجل فعل كذا وكذا)

ثم يقبل على عثمان فيقول له : (والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك ، أو لتتركن بطانتك هذه !)

وتدور بينهما مناقشة [١] يقرّع فيها الخليفة اشد تقريع ويجترىء عليه اقبح اجتراء !

وهذه مؤامرة مجرمة يكشف امرها فيحاج افرادها بغير السيف ثم يطلق سراحهم فيؤلبون عليه الثوار ويكونون اول من يرفع علم الثورة [٢]

وتلك جماعة تحصبه وهو يخطب ، فاذا خر صريعا حمل الى منزله وهذا ابن العاص يفاخره ويتطاول عليه فلا يدع له مجالا للقول ، وتنتهي المناقشة بانكسار عثمان

وهذا منشوره الذي كتب بمثله في الامصار ، ينبيء عن ضعفه وفرط لينه :

« والله لأفرشنكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ولاستصلحنكم بجهدي ، فلا تدعوا شيئاً كرهتموه — ولا يعصى الله فيه الا استعفيتم منه ، أنزل فيه عند ما أصبتم حتى لا يكون عليّ حجة ! »

ومتى لان الخليفة للناس الى هذا الحد ، صعب ارضاؤهم ووقف اطماعهم عند غاية لا يتعدونها

(٣)

بطانة عثمان ونصحاؤه

أما بطانة عثمان ونصحاؤه فكان أكثرهم مداهنا ، له مآرب يسعى الى تحقيقها . كانه ذلك ما كانه ، وكان بعض نصحائه أحمق مكروها من الناس ولنلمّ مسرعين بأهم نصحائه ومشيريه الذين لا يسع من يقرأ مصرع عثمان الا ان يطيف بذهنه ما قام به كل منهم من الدور الخطير الذي أدى الى مصرعه

ونبدأ بأولهم

---

(١) أحب ألا تفوت القارىء قراءة هذه المناقشة في تاريخ الطبري (جزء ٥ ص ١٠٨) (٢) أرجع الى الطبري (جزء ٥ ص ١٠٢)

(١) مروان الاحمق

« فانك متى أطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ! »
« نائلة زوج عثمان »

أقل ما نصف به مروان الحماقة والاندفاع ، وهو وحده أكبر دليل على صدق المثل القائل « عدو عاقل خير من صديق جاهل » وعلى صحة قول ابن عبدالقدوس:

ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

حسب انتباريء أن يعلم ان مروان هذا استطاع بحمقه وحمق أصحابه أن يوغر نفس علي على عثمان

قال ابن العباس :

وقد كان والله علي له [1] صاحب صدق ، حتى أوغر نفس علي عليه ، جعل مروان وسعيد ، وذووهما يحملونه على علي فيتحمل ، ويقولون : (لو شاء ما كلمك أحد)

وذلك على أن عليا كان يكلمه وينصحه ويغاظ عليه في المنطق في مروان وذويه ، فيقولون لعثمان :

هكذا يستقبلك وأنت أمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته ، فما ظنك بما غاب عنك منه

قالوا :

فلم يزالوا يعلي حتى أجمع ألا يقوم دونه

والحق أن عليا بذل النصح لعثمان وأبان له الخطة الرشيدة ، وأنقذه من مآزق محرجة ، ولكن

متى يبلغ البنيان يوما تمامه اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ولقد قال علي قولته الشهيرة التي تدل على تأمله الشديد من تردد عثمان :

---

(١) يعني عثمان

(ما يريد عثمان أن ينصحه أحد ! أتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد الا قد تسبب بطائفة من الارض يأكل خراجها ويستذل أهلها !)

وهذه الجملة على شدتها فيها كثير من الصدق ، وان كان في آخرها شيء من المغالاة !

* * *

وماذا يصنع علي ، بعد أن هدأ ثائرة الناس وخفف من غلوائهم ، بعد أن أعطاهم عثمان مهلة ثلاثة أيام ، فلما انتهت واجتمعوا على بابه — مثل الجبال كما يقول المؤرخون — فقال عثمان لمروان أخرج فكلمهم فاني أستحي ان أكلمهم

قالوا :

فخرج مروان الى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضا ، فقال : ما شأنكم ؟ قد اجتمعتم ، كأنما قد جئتم لنهب ، شاهت الوجوه ! كل انسان آخذ باذن صاحبه !

جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ! ، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم فانا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا !)

فكانت هذه الخطبة المملوءة حمقا ورعونة شرارة شديدة الاثر في الهاب نار الثورة [1]

ولئن كان مروان قد افلح في اثارة الناس ضد عثمان ، بهذا الاندفاع السخيف ، فقد افلح ايضاً في اغضاب علي ، وتخليه عن الدفاع عن عثمان ، بعد أن قال له قولته الخالدة :

« اما رضيت من مروان ولا رضي منك الا بتحرفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به ، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه !

---

(١) ارجع الى حكاية الكتاب الذي زوره على عثمان وكتبه الى عامله في مصر في الجزء الخامس من الطبري (ص ١١٥ و ١٢٠)

وايم الله اني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك اذهبت شرفك وغلبت على امرك [١] »

وقد صدق علي فقد اورده مروان ثم لم يصدره ، وكان هذا آخر لقاء بين علي وعثمان رضي الله عنهما !

(٢) عمرو بن العاص [٢]

« انا ابو عبد الله ، اذا حككت قرحة نكأتها !
ان كنت لالقي الراعي فأحرضه على عثمان ! »
« عمرو بن العاص »

ولعل هذه الجملة تمثل بوضوح لا مزيد عليه مقدار حقد ابن العاص عليه

---

(١) قالوا : فلما خرج علي ، دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة (امرأته) فقالت : « أتكلم أو اسكت ؟ » فقال : « تكلمي ! »

فقالت : « قد سمعت قول علي لك ، وانه ليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء ! »

قال : « فما اصنع ؟ »

قالت : « تتقي الله وحده لا شريك له ، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك ، فانك متى اطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ، وانما تركك الناس لمكان مروان منك

فأرسل الى علي فاستصلحه فان له قرابة منك وهو لا يعصى ! »

قالوا : « فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه وقال : « قد أعلمته انني لست بعائد »

قالوا : « فلما بلغ مروان قول نائلة فيه ، جاء الى عثمان فجلس بين يديه فقال : « أتكلم أو اسكت ؟ » قال : « تكلم ! »

فقال : « ان بنت الفرافصة . . . ! »

فقال عثمان : « لا تذكرنها بحرف فاسوىء لك وجهك ، فهي والله أنصح لي منك »

قالوا : « فكف مروان

(٢) لعل ابدع وصف وسمه به ابن عباس . هو قوله له ، حين قام عمرو

وكثيراً ما تظاهر له بمظهر انه صح سراً ، ثم جبهه علانية

الا ترى اليه ، يستشيره عثمان في جماعة من صحبه فيقول له عمرو :

ارى انك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم ان تعتدل ، فان ابيت فاعتزم ان تعتزل ، فان ابيت فاعتزم عزماً وامض قدماً فيه ! »

فاذا تفرق القوم قال عمرو :

« والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز علي من ذلك ، ولكن قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولي ، فيثقوا بي فأقود اليك خيراً أو ادفع عنك شراً ! »

أيخفى عليك مافي هذا الاعتذار من المكر والدهاء ؟

بالموسم فأطرى معاوية وبني أمية ، وتناول بني هاشم ، ثم ذكر مشاهده بصفين ، فقال ابن عباس :

« يا عمرو

انك بعت دينك من معاوية ، فاعطيته ما في يدك ، ومنالك ما في يد غيره ، فكان الذي أخذ منك فوق الذي اعطاك ، وكان الذي أخذت منه دون ما اعطيته ، وكل راض بما أخذ واعطى !

فلما صارت مصر في يدك ، تتبعك بالعزل والتنقص ، حتى لو أن نفسك فيها لألقيتها اليه !

وذكرت مشاهدك بصفين فما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نكأتنا فيها حربك ، وان كنت فيها لطويل اللسان ، قصير السنان ، آخر الحرب اذا أقبلت ، وأولها اذا أدبرت !

لك يدان ، يد لا تبسطها إلى خير ، ويد لا تقبضها عن شر

ووجهان ، وجه مؤنس ، ووجه موحش !

ولعمري ، انمن باع دينه بدنيا غيره ، لحري ، أن يطول حزنه على ما باع واشترى

لك بيان ، وفيك خطل ، ولك رأي وفيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد

فأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

وانظر الى كيده ، وهو يصيح بعثمان على ملأ من الصاخبين المتمردين الذين وقف يخطبهم عثمان :

(يا أمير المؤمنين ! انك قد ركبت نهابير [١] ، وركبناها معك فتب نتب)

ولا تنس مناقشته الجريئة لعثمان ، التي ذكرها الطبري في الجزء الخامس ص(١٠٨) وأحب أن ترجع اليها

ولقد حدثنا المؤرخون انه خرج حتى نزل منزله بفلسطين فكان يقول :

(والله ان كنت لألقى الراعي فاحرضه عليه [٢])

(٣) معاوية [٣]

« فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره اظهار مخالفته أصحاب رسول الله »

(المؤرخون)

ولعلك تعجب من ذكر معاوية في هذا المقام ؟

ولكن مهّ العجب ، وأقل ما يقال في هذا الداهية انه كان يستطيع انقاذ عثمان ، من الحتف ، وانه أضاع هذه الفرصة عمداً ، وفاق خطة مرسومة

لقد استنجد به عثمان — لينقذه من مخالب الموت ، ولكن شبح الخلافة لاح لمعاوية فتباطأ عن نصرة عثمان ، وانساه عرض الدنيا الزائل وزخرفها الكاذب واجب الوفاء والنجدة ، قالوا :

ان عثمان لما رأى ما قد نزل به ، وما قد انبعث عليه من الناس ، كتب الى معاوية ابن أبي سفيان وهو بالشام

---

(١) نهالك (٢) وفي رواية اخرى انه قال : « ان كنت لأحرض عليه ، حتى اني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل ! »

(٣) لعل ابدع وصف لمعاوية هو قول عمرو بن العاص : ما رأيت معاوية قط متكئاً على يساره ، واضعاً احدى رجليه على الأخرى ، كاسراً احدى عينيه ، يقول الذي يكلمه : « ياهناه ! » إلا رحمت الذي يكلمه ! »

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فان أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث الي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول !)

قالوا : (فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره مخالفة أصحاب الرسول ، وقد علم اجتماعهم !)

وليس يخفى على أحد مغزى هذا الكلام وسر امتناعه عن نصرة أحق الناس بنصرته (١)

* * *

ومن تهكمات القدر وعجائب الايام ومضحكات العبر أن يحرض ابن العاص على قتل عثمان ويتخلى معاوية عن نجدته ، ثم يطالبان بدمه عليا بن أبي طالب الذي أخلص له النصيحة وأبان له طريق النجاة واضحا فتنكبه !

الدكتورة ت . كازاكوف

دكتورة شهيرة حائزة شهادة الطب من جامعات روسيا وهي اختصاصية بمعالجة العقم عند النساء بطرق حديثة مؤكدة وتعالج بالكهرباء والحمامات والتدليك بالطرق الفنية الحديثة . وتوالد النساء وتعالج جميع الامراض النسائية على اختلاف انواعها بطرق ناجعة ثابتة الفائدة عيادتها بشارع بورصة نمرة ٢ بشارع فؤاد الاول (بولاق) تليفون نمرة ٤٢ — ١٣ مدينة

---

(١) وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودعه وخرج :

« يا أمير المؤمنين ! انطلق معي الى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فان أهل الشام على الأمر لم يزالوا »

فقال له عثمان : « انا لا أبيع جوار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشيء ، وان كان فيه قطع خيط عنقي

قال : « فابعث اليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة أن نابت المدينة أو اياك ! » فأبى ،

فلما حانت ساعة الجد ظهر ان كل ذلك وعود خلابة وكلمات معسولة لا قيمة لها !